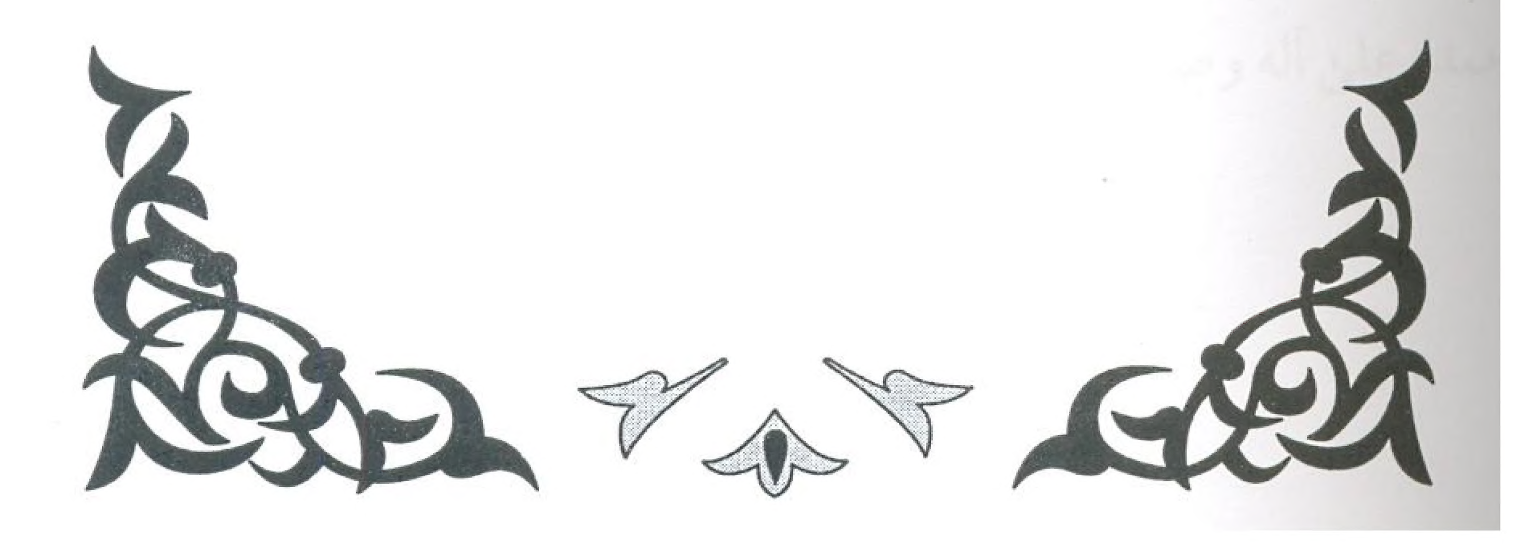


المحاضرة الرابعة

علماء وأمراء

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

وبعد..

فهذه مواقف مشرقة اخترتها من تاريخ أمتنا الإسلامية المجيد تصور حال العلماء مع الأمراء؛ لأن هذين الصنفين إذا صلحا صلحت الأمة بصلاحهما وإذا فسدا فسدت الأمة.

وقد كتبت هذه المواقف التاريخية دونما تعليق؛ لأن كل موقف يحمل في طياته العظة للمتعظ والعبرة للمعتبر كتبتها تنبيهاً للغافل وتذكيراً للناسي.

واللهَ أسألُ أن ينفع بها إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبه

أفقر الخلق إلى الله

وحيد بن عبد السلام بالي

الحجاز في ٤ من صفر ١٤١٠هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ ـ ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**» رواه البخاري.

٢ ـ رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١].

٣ ـ رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢].

٤ ـ ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ ـ ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة ـ عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء ـ لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدةً لله في بيت الله.

٦ ـ رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣].

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ ـ رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب(١) .

٨ ـ رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره(٢) .

٩ ـ ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين(٣) .

١٠ ـ ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إن وجد ما يقتضي ذلك(٤) .

١١ ـ ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**».رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

ـ ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلا ة».

ـ وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: « الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم».

ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».

وصلاة الملائكة الاستغفار.

ثانيًا: النوايا الخاصة:

١ - حث السلاطين وأولياء الأمور على العدل في الرعية.

٢ - حثهم على اتباع أحكام الله وشرعه في كل أحوالهم.

٣ - حث العلماء على قول الحق، والنصح لأولياء الأمور.

٤ - حث المسلمين على الصدق والإخلاص، وأن لا تأخذهم في الله لومةُ لائم.

٥ - بيان أن الصدق منجاةُ لصاحبه ولو ظنَّ فيه الهلكة.

٦ - حث العامة على حب العلماء وتقديرهم ومعرفة حقوقهم.

٧ - بيان تواضع بعض السلاطين وقبولهم النصيحة من الناصحين.

٨ - إبراز عظمة هذا الدين، وأنَّه أخرج رجالاً لا يخافون إلا الله.

٩ - بيان أن الله يدافع عن أوليائه ومن قام لله لا يريد إلا وجهه.

عناصر المحاضرة:

١ - فضل العلم والعلماء.

٢ - ثلاثون موقفًا مشرقًا.

٣ - كن مع الله يكن الله معك.

* * *

بين سعيد بن جبير والحجاج بن يوسف الثقفي

كان الحجاج بن يوسف، فاسق بني ثقيف، واليًا لعبد الملك يأخذ بالشبهات ويتحرىٰ المناوئين في جميع البلاد الإسلامية لحكم أميره وسيده.

فيصب المحن عليهم دون هوادة ولا خوف من الله المقتدر الجبار وكان خالد ابن عبد الملك القسري واليًا علىٰ مكة المكرمة شرفها الله وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته فألقىٰ القبض عليه واعتقله ثم أراد أن يتخلّص منه فأرسله فخوراً مع إسماعيل بن واسط البجلي إلىٰ الحجاج بن يوسف.

قال الحجاج: ما اسمك؟

سعيد: سعيد بن جبير.

الحجاج: بل أنت شقي بن كسير.

سعيد: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

الحجاج: شقيت أمك وشقيت أنت.

سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

الحجاج: لابد لك بالدنيا ناراً تلظىٰ.

سعيد: لو علمت أن ذلك بيدك، لاتخذتك إلهًا.

الحجاج: فما قولك في محمد؟

سعيد: نبي الرحمة وإمام الهدىٰ.

الحجاج: فما قولك في علي أهو في الجنة أم هو في النار؟

سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها، عرفت أهلها.

الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقي.

الحجاج: فأيهم أرضىٰ للخالق؟

سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أحب أن تصدقني.

سعيد: إن لم أحبك لن أكذبك.

الحجاج: فما بالك لم تضحك؟

سعيد : وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار!!

الحجاج: فما بالنا نضحك؟

سعيد: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعه بين يديه.

فقال سعيد: إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء من الدنيا إلا ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي بكى سعيد.

فقال: ما يبكيك أهو اللعب؟

قال سعيد: هو الحزن. أما النفخ فذكَّرني يومًا عظيمًا يوم ينفخ في الصور، ما العود فشجرة قطعت من غير حق!! وأما الأوتار فمن الشاة تُبعث يوم نيامة!!

قال الحجاج: ويلك يا سعيد.

فقال: لا ويل لمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك؟

فـقـال: اختر أنت لنفسك فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في آخرة؟

قال: أتريد أن أعفو عنك؟

فقال: إن كان العفو، فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج ضحك فأُخبر الحجاج بذلك فردوه إليه.

وقال: ما أضحكك؟

فقال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط وقال: اقتلوه.

فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا ما أنا من المشركين.

قال الحجاج: كبوه على وجهه.

قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه.

قال سعـيد: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، اللهم لا تسلّطه على أح يقتله بعدي[1].

❊ ❊ ❊

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٣٧١).

بين حطيط والحجاج

جيء بالعالم حطيط الزيات إلى الحجاج، فلما دخل عليه. قال: أنت حطيط؟

قال: نعم، سل عما بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام[1] على ثلاث خصال إن سُئِلتُ لأصدقنَّ وإن أبتُليتُ لأصبرن وإن عُوفيتُ لأشكرن.

قال الحجاج: فما تقول فيَّ؟

قال: أقول فيك إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظِّنة.

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول إنه أعظم جرمًا منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه، فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب، فانتهى به العذاب إلى أن شُقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدُّون - يستلون - قصبة قصبة، حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئًا، فقيل للحجاج إنه في آخر رمق.

فقال: أخرجوه فارموا به في السوق.

قال جعفر - وهو الراوي -: فأتيته أنا وصاحب له.

فقلنا له: حطيط! ألك حاجة؟

قال: شربة ماء.

فأتوه بشربة ثم استشهد، وكان عمره ثماني عشرة سنة - رحمه الله[2] -.

---

(١) مقام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة المشرفة.

(٢) الإحياء الجزء الخامس ص (٥٤).

بين سعيد بن المسيب وهشام بن إسماعيل

قال يحيىٰ بن سعيد، كتب هشام بن إسماعيل والي المدينة إلىٰ عبد الملك بن مروان أن أهل المدينة قد أطبقوا علىٰ البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب.

فكتب أن اعرضه علىٰ السيف فإن مضىٰ فاجلده خمسين جلدة وطُف به في أسواق المدينة، فلما قدم الكتاب علىٰ الوالي دخل سليمان بن يسار، وعروة ابن الزبير وسالم بن عبد الله علىٰ سعيد بن المسيب وقالوا: جئناك في أمر قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضربت عنقك ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثًا فأعطنا إحداهن، فإن الوالي قد قَبِل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا، ولا نعم.

قال: يقول الناس: بايع سعيد بن المسيب، ما أنا بفاعل وكان إذا قال: لا، لم يستطيعوا أن يقولوا: نعم.

قالوا: تجلس في بيتك، ولا تخرج إلىٰ الصلاة أيامًا فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك.

قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذني حيَّ علىٰ الصلاة ما أنا بفاعل.

قالوا: فانتقل من مجلسك إلىٰ غيره، فإنه يرسل إلىٰ مجلسك، فإن لم يجدك أمسك عنك.

قال: أفَرَقًا من مخلوق!! ما أنا متقدم شبرًا ولا متأخر فخرجوا وخرج إلىٰ

صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان فيه، فلما صلى الوالي بعث إليه فأتي به.

فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك.

قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين: بيعة للوليد، ومثلها لسليمان في وقت واحد فلما رآه قد مضى أمر به فجُرد فإذا عليه ثياب من شعر.

فقال: لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن فضربه خمسين سوطًا، ثم طاف به أسواق المدينة، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال إن هذه الوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة[١]. ومنعوا الناس أن يجالسوه فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له: قم من عندي، كراهية أن يُضرب بسببه[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) لأنه كان لا ينظر إلى قفا رجل في الصلاة إذ كان يصلي في الصف الأول ولم تفته تكبيرة الإحرام منذ أربعين سنة.

(٢) وفيات الأعيان (٢ / ٣٧٧) وسير أعلام النبلاء (٤ / ٢٣١) والحلية (٢ / ١٧٠).

بين أبي حازم وسليمان بن عبد الملك

حين قـدم سليمـان بن عبـد الملك المدينة وهو يريـد مكة وأرسل إلىٰ عـالم الجليل أبي حازم، فلما دخل عليه.

قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت.

فـقــال: لأنكم خربتم آخـرتكم، وعـمرتم دنياكم، فكرهتم أن تُنقلُوا م العمران إلىٰ الخراب.

فقال سليمان: كيف القدوم علىٰ الله.

قــال: يا أمير المؤمنين، أمـا المحسن فكالغـائب يقدم علىٰ أهله وأمـا المسي فكالآبق يقدم علىٰ مولاه.

فبكىٰ سليمان وقال: ليت شعري ما لي عند الله؟!

قال أبو حـازم: اعرض نفسك علىٰ كتاب الله حيث قال: ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار: ١٣ـ١٤].

قال سليمان: فأين رحمة الله؟

قال: قريب من المحسنين.

قال: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟

فقال: أهل البر والتقوىٰ.

قال: فأي الأعمال أفضل؟

فقال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

قال: أي الكلام أسمع؟

فقال: قول الحق عند من تخاف وترجو.

قال: فأي المؤمنين أخسر؟

فقال: رجل خطأ في هوىٰ أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟

فقال: أو تُعفيني؟

قال: لابد، فإنها نصيحة تُلْقِها إليَّ.

فقال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم، حتىٰ قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم.

فقال رجل من جلسائه: بئسما قلت.

قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق علىٰ العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

فقال سليمان: يا أبا حازم، كيف لنا أن نصلح للناس؟

قال: تدع الصلف، وتستمسك بالعروة[1] وتَقسم بالسوية.

---

(١) في الأصل (المروه) ولعلها تصحيف.

قال: كيف المأخذ به؟

قال: أن تأخذ المال في حِلِّه، وتضعه في أهله.

قال: يا أبا حازم، ارفع إليَّ حوائجك؟

قال: تنجيني من النار، وتدخلني الجنة؟

قال: ليس ذلك إليَّ.

قال: فلا حاجة لي غيرها، ثم قام فأرسل إليه بمائة دينار فردها إليه، ولم يقبلها[1].

* * *

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٢٣).

بين عالم وسليمان بن عبد الملك

دخل أحدهم على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني لِّمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته.

فقال: إنا نجود بسعة الاحتمال على من نرجو نصحه، ولا نأمن غشه، يف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه؟!

فقال: يا أمير المؤمنين إنه تكتَّفَك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا اهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى، ولم يخافوا الله ك، حرب الآخرة سلم الدنيا، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه، فإنهم يألوا في الأمانة تضييعًا وفي الأمة خسفًا وعسفًا وأنت مسئول عما اجترحوا يسوا بمسئولين عما اجترحت، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم اس غبْنا من باع آخرته بدنيا غيره.

فقال له سليمان: أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع من سيفك.

قال: أجل، يا أمير المؤمنين ولكن لا عليك[1].

❋ ❋ ❋

(1) الإحياء الجزء الخامس ص١٢٢.

بين غلام وعمر بن عبد العزيز

لما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدت الوفود من كل بلد لبيان حاجته
وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام هاشمي للكلام وكان حديث السن.

فقال عمر: لينطق من هو أسن منك.

فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإذا منح الل
عبداً لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه ول
أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك.

فقال عمر: صدقت، قل ما بدا لك.

فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين: نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئه، وق
أتيناك لمنِّ الله الذي منَّ علينا بك ولم يقدمنا إليك رغبة أو رهبة.

أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرهبة فقد أمِنَّا جورك بعدلك.

فقال عمر: عظني يا غلام.

فقال: أصلح الله أمير المؤمنين: أنّ ناسًا من الناس غرّهم حلم الله عنهم
وطول أملهم، وكثرة ثناء الناس عليهم، فزلت الأقدام فهووا في النار.

فلا يغرنك حلم الله عنك، وطول أملك، وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك
فتلحق بالقوم. فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة. ثم سكت.

فقال عمر: كم عمر الغلام؟

فقيل له ابن إحدىٰ عشرة سنة ثم سأل عنه فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن
علي رضي الله عنهم، فأثنىٰ عليه خيراً ودعا له.

بين مكحول ويزيد بن عبد الملك

جلس التابعي الجليل مكحول عالم أهل الشام في مجلسه يلقي درسه كعادته، وحوله طلاب العلم يأخذون عنه، إذ أقبل الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك في زينته وتبختره، وجاء إلىٰ حلقة مكحول، فأراد الطلاب أن يوسِعوا له.

فقال مكحول: دعوه يتعلم التواضع[1].

بين طاووس وهشام بن عبد الملك

إن هشام بن عبد الملك قدم حاجًا إلىٰ مكة فلما دخلها قال: ائتوني برجل من الصحابة.

فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا.

فقال: من التابعين.

فأُتي بطاووس اليماني العالم الجليل ـ رحمه الله ـ.

فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين. لكن قال:

السلام عليك يا هشام، ولم يُكنه، وجلس بإزائه.

وقال: كيف أنت يا هشام، فغضب هشام غضبًا شديدًا حتىٰ همَّ بقتله.

---

(1) سير أعلام النبلاء (٥ / ١٥٠).

فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكنك ذلك.

فقال: يا طاووس ما الذي حملك علىٰ ما صنعت؟

قال: وما الذي صنعت؟

قال هشام: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تُقَبِّلْ يدي، ولم تُسلم بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بإزائي دون إذني، وقلت: كيف أنت يا هشام؟!.

فقال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب عليّ.

وأما قولك لم تُقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة، وأما قولك لم تسلم بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب، وأما قولك لم تكنني فإن الله سمىٰ أنبياءه وأولياءه، فقال: يا داود ويا يحيىٰ ويا عيسىٰ وكنىٰ أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب وتب.

وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه يقول إذا أردت أن تنظر إلىٰ رجل من أهل النار، فانظر إلىٰ رجل جالس وحوله قوم قيام

فقال هشام: عظني.

قال: سمعت أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه يقول: إن في جنهم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وخرج[1].

---

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٥١٠).

بين طاووس وابن نجيح

عن ابن طاووس قال: كنت لا أزال أقول لأبي: إنه ينبغي أن يُخرجَ علىٰ هذا السلطان، وأن يفعل به.

قال: فخرجنا حجاجًا، فنزلنا في بعض القرىٰ، وفيها عامل - يعني لأمير اليمن - يقال له ابن نجيح، وكان من أخبث عمالهم، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد فجاء ابن نجيح فقعد بين يدي طاووس فسلم عليه فلم يجبه، ثم كلّمه فأعرض عنه، ثم عدل إلىٰ الشق الآخر فأعرض عنه، فلما رأيت ما به قمت إليه فمددت يده وجعلت أسائله وقلت له: إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك فقال العامل: بلىٰ معرفته لي فَعَلَتْ ما رأيت!، قال: فمضىٰ أبي لا يقول لي شيئًا، فلما دخلت المنْزل قال: أي لكع بينما أنت زعمت تريد أن تخرج عليهم بسيفك لم تستطع أن تحبس عنه لسانك[1].

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥ / ٤١)

بين طاووس وسليمان بن عبد الملك

جاء الخليفة سليمان بن عبد الملك يومًا إلىٰ طاووس، فلم ينظر إليه، فقيل له في ذلك.

فقال: أردت أن يعلم أن لله رجالاً يزهدون فيما لديه[1].

* * *

بين طاووس والمنصور

ورد أن أبا جعفر المنصور استدعىٰ طاووس - أحد علماء عصره - ومعه مالك ابن أنس - رحمهما الله تعالىٰ - فلما دخلا عليه، أطرق ساعة ثم التفت إلىٰ طاووس.

فقال له: حدثني عن أبيك.

فقال: حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ اللهُ فِي حُكْمِهِ فَأَدْخَلَ عليه الجَوْرَ في عدْله**». فأمسك ساعة.

قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه ثم التفت إليه أبو جعفر

فقال: عظني يا طاووس.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله تعالىٰ يقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٤٢٤)

...) إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد (٨) وثمود الذين جابوا ...خر بالواد (٩) وفرعون ذي الأوتاد (١٠) الذين طغوا في البلاد (١١) فأكثروا فيها ...ساد (١٢) فصب عليهم ربك سوط عذاب (١٣) إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ٦ـ١٣].

...قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه فأمسك عنه ثم قال: ...لني الدواة، فأمسك ساعة حتى أسود ما بيننا وبينه، ثم قال: يا طاووس ...لني هذه الدواة. فأمسك عنه.

فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟

فقال: أخشى أن تكتب بها معصية لله، فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك

قال: قوما عني.

قال طاووس: ذلك ما كنا نبغ منذ اليوم.

قال مالك: فما زلت أعرف لطاووس فضله[1].

* * *

---

(١) تذكرة الحفاظ (١ / ١٦٠) وفيات الأعيان (٢ / ٥١١).

بين ابن أبي ذؤيب وأبي جعفر المنصور

عن الإمام الشافعي - رحمه الله تعالىٰ - قال: حدثني عمي محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن يزيد.

قال: فأتىٰ الغفاريون فشكوا إلىٰ أبي جعفر شيئًا من أمر الحسن بن يزيد.

فقال الحسن هذا: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذؤيب.

قال: نسأله.

فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب.

فقال: أشهد أنهم تحطم في أعراض الناس، كثير الأذىٰ عليهم.

فقال أبو جعفر: أفسمعتم؟

فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن يزيد.

فقال: يا ابن أبي ذؤيب، ماتقول في الحسن بن يزيد؟

فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه.

فقال: سمعت يا حسن ما قال فيك وهو الشيخ الصالح؟

فقال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك؟

فقال: ما تقول فيّ؟

قال: تُعفني يا أمير المؤمنين .

قال: أسألك بالله إلا أخبرتني؟

قال: تسألني بالله كأنك لم تعرف نفسك!!

قال: والله! لتخبرني؟

قال: أشهد أنك أخذت المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أنك الظلم ببابك فاش .

قال: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه .

ثم قال: أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك .

قال: فقال ابن أبي ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر وأخذا الحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا أنوفهم .

قال: فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله .

قال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك .

فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك المهدي .

قال: فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري .

فقال: يا أبا الحارث : لقد سرّني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي .

فقال: يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كلنا كان في المهد[1] .

---

(١) الإحياء الجزء السابع ص٧٧ .

بين الحسن البصري والحجاج بن يوسف الثقفي

لما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق وطغىٰ في ولايته وتجبر كان الحسر
البصري أحد الرجال القلائل الذين تصدوا لطغيانه وجهروا بين الناس بسو
أفعاله وصدعوا بكلمة الحق في وجهه من ذلك أن الحجاج بنىٰ لنفسه بناء فې
واسط فلما فرغ منه نادىٰ في الناس أن يخرجوا للفرجة عليه والدعاء لـ
بالبركة .

فلم يشأ الحسن أن يفوِّت علىٰ نفسه فرصة اجتماع الناس هذه، فخرج إليهـ
ليعظهم ويذكرهم ويزهدهم بعرض الدنيا، ويرغبهم بما عند الله ـ عز وجل
ولما بلغ المكان ونظر إلىٰ جموع الناس وهي تطوف بالقصر المنيف مأخوذ
بروعة بنائه مدهوشة بسعة أرجائه، مشدودة إلىٰ براعة زخارفه، وقف فيهـ
خطيبًا وكان في جملة ما قاله: لقد نظرنا فيما ابتنىٰ أخبث الأخبثين، فوجد
أن فرعون شيَّد أعظم مما شيَّد وبنىٰ أعلىٰ مما بنىٰ، ثم أهلك الله فرعون وأتى
علىٰ ما بنىٰ وشيد. ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه وأن أهل
الأرض قد غروه، ومضىٰ يتدفق علىٰ هذا المنوال حتىٰ أشفق عليه أحـ
السامعين من نقمة الحجاج، فقال له: حسبك يا أبا سعيد. . حسبك، فقال
الحسن: لقد أخذ الله الميثاق علىٰ أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

وفي اليوم التالي دخل الحجاج إلىٰ مجلسه وهو يتميز من الغيظ وقال
لجلاَّسه: تبًا لكم وسحقًا، يقوم عبد من عبيد أهل البصرة ويقول فينا ما شاء أ
يقول ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه، والله لأسقينكم من دمه يا معشر

الجبناء، ثم أمر بالسيف والنطع فأحضرا، ودعا بالجلاد فمثُل واقفًا بين يديه، ثم وجَّه إلىٰ الحسن بعض شرطه، وأمرهم أن يأتوا به.

وما هو إلا قليل حتىٰ حضر الحسن فشخصت إليه الأبصار ووجفت عليه القلوب فلما رأىٰ الحسن السيف والنطع والجلاد حرك شفتيه ثم أقبل علىٰ الحجاج وعليه جلال المؤمن وعزة المسلم ووقار الداعية إلىٰ الله.

فلما رآه الحجاج علىٰ حاله هذا هابه أشد الهيبة وقال له هاهنا يا أبا سعيد.. هاهنا.. ثم ما زال يوسع له ويقول: هاهنا... والناس ينظرون إليه في دهش واستغراب حتىٰ أجلسه علىٰ فراشه.

ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج وجعل يسأله عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجنان ثابت، وبيان ساحر، وعلم واسع.

فقال له الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد، ثم دعا بغالية وطيَّبَ له بها لحيته وودعه.

ولما خرج الحسن من عنده تبعه حاجب الحجاج وقاله له: يا أبا سعيد، لقد دعاك الحجاج بغير ما فعل بك وإني رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع فحركت شفتيك، فما قلت؟!

فقال الحسن: لقد قلت يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي اجعل نقمته بردًا وسلامًا عليَّ كما جعلت النار بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم[1].

❊ ❊ ❊

(١) صور من حياة التابعين (٢ / ١٧).

بين أبي يوسف القاضي وهـارون الـرشـيد

عندما طلب هارون الرشيد من أبي يوسف القاضي وضع كتاب الخراج لـ
يفت القاضي أن يقدّم النصيحة للخليفة في مقدمة الكتاب، فقال يا أمير
المؤمنين: إن الله ـ وله الحمد ـ، قد قلّدك أمراً عظيماً ثوابه أعظم الثواب
وعقابه أشد العقاب، قلّدك أمر هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت وأنت تبني
لخلق كثير، وقد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهـ
وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوىٰ أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه
علىٰ من بناه وأعان عليه. فلا تضيعن ما قلدك الله أمر هذه الأمة والرعية، فإ
القوة في العمل بإذن الله، لا تؤخر عمل اليوم إلىٰ الغد، فإنك إذا فعلت ذلك
أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل فإنه لا عمل بعد الأجل
وإن الرعاة مؤدُّون إلىٰ ربهم ما يؤدي الراعي إلىٰ ربه، فأتم الحق فيما ولاك الله
وقلدك ولو ساعة من نهاره، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت
به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك والأمر بالهوىٰ، والأخذ بالغضب
وإذا نظرت إلىٰ أمرين، أحدهما للاخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على
الدنيا، فإن الآخرة تبقىٰ والدنيا تفنىٰ، وكن من خشية علىٰ حذر، واجعل
الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم
واحذر، فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوىٰ بالتوقي ومن
يتق الله يتقه.

إني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك، ورعية ما استرعاك الله

وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله، فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدىٰ وتَعْمىٰ في عينيك وتتخفىٰ رسومه ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من الفلج لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك علىٰ يديه مما لو شاء رده عن مواطن الهلكة بإذن الله.

وأورده أماكن الحياة والنجاة فإن ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه آخذ وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووفاه الله أضعاف ما وفىٰ له.

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره فلست تنسىٰ، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ولا يضيع حقك من هذه الدنيا في هذه الليالي والأيام كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحًا وتهليلاً وتمجيداً والصلاة علىٰ رسول الله ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدىٰ[1].

❋ ❋ ❋

(١) مقدمة كتاب الخراج للإمام أبي يوسف القاضي.

بين أبي حنيفة والمنصور

انتقض أهل الموصل على أبي جعفر المنصور، وقد اشترط المنصور عليه
أنهم إن انتقضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الإم
أبو حنيفة.

فقال: أليس صحيحًا أنه عليه السلام قال: «المؤْمِنُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ»، وأه
الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا عليَّ وقد خرجوا على عاملي، وقد حل
دماؤهم.

فقال رجل منهم: يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم فإن عفو
فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فبما يستحقون.

فقال لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟

فأجاب أنهم شرطوا لك ما لا يملكون، وهو استحلال دمائهم، وشرط
عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث[1].

فأمرهم المنصور بالقيام، فتفرقوا، فدعاه وحده.

فقال: يا شيخ. القول ما قلت، انصرف إلى بلادك ولا تفت الناس بما ه
شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج[2].

* * *

(١) يشير الإمام أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - إلى قوله عليه الصلاة والسلام «لا يحِلُّ دم امرىءٍ مسلم بإحدى ثلاث، النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة» متفق عليه.

(٢) المناقب لابن الجوزي (٢ / ١٧).

بين أبي حنيفة والمنصور

أراد أبو جعفر المنصور أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، فقال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف.

فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، وأبى أن يلبي الأمر.

قال الربيع: رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وهو يقول: اتق الله ولا ترعى أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟ لو اتجه الحكم عليك، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون من يكرمهم لك، ولا أصلح لذلك فقال له: كذبت أنت تصلح.

فقال له: قد حكمت لي على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيًا على أمانتك وهو كذاب[1]؟!.

* * *

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٤٠٧).

بين الأوزاعي وعبد الله بن علي

لما دخل عبد الله بن علي دمشق، بعد أن أجلىٰ بني أمية عنها، طلب الأوزاعي، فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه قال الأوزاعي: دخلت عليه، وهو علىٰ سرير وفي يده خيرزانه، والمسوَّدة عن يمينه وشماله معهم السيوف مصلته، والغمد والحديد، فسلمت عليه فلم يرد. نكت بتلك الخيرزانة التي في يده.

ثم قال: يا أوزاعي ما ترىٰ فيما صنعناه من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ أجهاداً ورباطًا هو؟

فقلت: أيها الأمير سمعت يحيىٰ بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت محمد ابن إبراهيم التيمي يقول: سمعت علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيات وإنَّمَا لكُلِّ امريء ما نوى، فمن كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

فنكت بالخيرزانة أشد ما ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيدهم علىٰ قبضات سيوفهم.

ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية.

فقلت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحلُّ دم امريءٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث،**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

النفس بالنفس والثيب الزَّاني والتاركُ لدنيه المفارقُ للجماعة»[١] .

فنكت أشد من ذلك .

ثم قال: ما تقول في أموالهم؟

قلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك أيضًا ، وإن كانت حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك .

ثم قال: ألا نوليك القضاء .

قلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليَّ في ذلك إني أحب من ابتدأوني به من الإحسان .

قال: كأنك تحب الانصراف .

قلت: إن روائي حُرَمًا ، وهن يحتجن القيام عليهن وسترهن ، وقلوبهن مشغولة بسببي .

انتظرت رأسي أن يسقط بين يدي فأمرني بالانصراف[٢] .

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) مجلة العربي العدد (٧١) سنة ١٩٦٤م . الأوزاعي فقيه أهل الشام .

بين الأوزاعي والمنصور

وهذا الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي قال محدثًا عن نفسه بعث إ
أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل، فأتيته، فلما وصلت إليه سلم
عليه بالخلافة، فرد عليّ واستجلسني، ثم قال لي.

ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين.

قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت: انظر يا أمير المؤمنين، أن لا تجهل شيئًا مما أقول.

قال: وكيف أجهله؟! وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك، وأقدمتك له.

قلت: أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به.

قال الأوزاعي: فصاح بي الربيع وأهوىٰ بيده إلىٰ السيف فانتهره المنصور،

وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة!

فطابت نفسي وانبسطت في الكلام.

فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسو
الله ﷺ: «أيّما عبْدٌ جاءتْهُ موعظةٌ من الله في دينه فإنَّها نعمةٌ من الله سيقت إ
فإنْ قبلَهَا بِشُكْرٍ وإلاَّ كانتْ حجَّةً من الله عليه ليزداد إثمًا، ويزداد الله بها سخ
عليْهِ».

يا أمير المؤمنين: من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين، إن الذ

لَيِّن قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ، وقد كان بهم رءوفًا رحيمًا مواسيًا لهم بنفسه من ذات يده محمودًا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، ولا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة وتبتئس بما أصابهم من سوء.

يا أمير المؤمنين: قد كنت في شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف إذا انبعث منهم فئام وراء فئام، وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بليْة أدخلتها عليه، وظلمة سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين: إن المُلْك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين: بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك يا أمير المؤمنين: قد سأل جدك العباسُ النبيَّ ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال النبي ﷺ: «**يا عبَّاسُ يا عمَّ النبيِّ نفسٌ تحْيِيها خيرٌ من إمارة لا تُحْصِيهَا**» نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئًا إذ أوحى الله إليه: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «**يا عَبّاس، يا صفيَّة عمَّةَ النَّبِي، ويا فاطمةُ بنتُ محمَّد إني لست أغني عنكم من الله شيئًا لي عملي، ولكم عملكم**».

وقد قال عمر بن الخطاب: الأمراء أربعة: فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف

ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله، وأم
ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله: «بئس الرِّعَ
الحُطَمَـة»[1] فهو الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا. ث
قال: يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكلام عند ال
التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمعصية ال
أذله ووضعه، فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك. ثم نهضت فقال لي إل
أين؟.

فقلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله.

فقال: أذنت لك وشكرت نصيحتك وقبلتها.

قالْ محمد بن مصعب فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله.

وقـــال: أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا، وعرف
المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك[2].

* * *

(١) والحطمة: اسم من أسماء النار لأنها تحطم ما يلقى فيها.
(٢) روى هذه النصيحة الحافظ ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.

بين سفيان الثوري
والخليفة المهدي

قال الإمام سفيان الثوري: لما حج المهدي قال: لابد لي من سفيان، فوضعوا لي الرصد حول البيت، فأخذوني بالليل، فلما مَثلت بين يديه قال لي: لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا فما أمرتنا من شيء صرنا إليه، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه.

فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا؟

قال: لا أدري لي أمناء ووكلاء.

قلت: فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالىٰ فسألك عن ذلك. لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حجّ قال لغلامه: كم أنفقت في سفرنا هذا؟

قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً.

فقال: ويحك! أجحفنا بيت مال المسلمين.

وقد علمت ما حدَّثنا به منصور عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبَّ مُتَخَوِّض في مال الله ومالِ رسُوله فيما شاءتْ نفسُهُ له النَّارُ غداً**».

فيقول أبو عبيد الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟

فيجيبه سفيان بقوة وعزة المسلم: أسكت إنما أهلك فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ[1].

(١) المسند للأستاذ: أحمد شاكر الجزء الأول. وفيات الأعيان (٢ / ٣٨٧).

وهذا موقف ثان له: في يوم قال الخليفة المهدي للخَيْزُرَانِ: أريد أ أتزوج، فقالت له: لا يحل لك أن تتزوج عليّ، قال: بلىٰ قالت له: بيني وبينك من شئت.

قال: أترضين سفيان الثوري؟.

قالت: نعم.

فوجه إلى سفيان: فقال: إن أم الرشيد تزعم أنه لا يحل لي أن أتزوج عليها، وقد قال تعالىٰ: ﴿ **فانكحُوا ما طاب لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ** ﴾ ثم سكت فقال له سفيان أتم الآية يريد قوله تعالىٰ: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾، وأنت لا تعدل، فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبىٰ أن يقبلها[١].

وهذا موقف ثالث له: قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وأتىٰ سفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره فلما دخل عليه سلم ولم يسلم بالخلافة والربيع قائم علىٰ رأسه متكئًا علىٰ سيفه يرقب أمره فأقبل عليه المهدي بوجه طلق.

وقال له: يا سفيان انظر هاهنا وهاهنا وتظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشىٰ أن نحكم فيك بهوانا.

قال سفيان: إن تحكم فيَّ، يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل.

فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ أتأذن لي أن أضرب عنقه.

فقال له المهدي: اسكت ويلك وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقىٰ

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٣٨٩).

لسعادتهم اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم فكتب عهده ورفعه إليه فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس فطلب في كل بلد فلم يوجد فتولى القضاء مكانه شريك النخعي[١].

وهذا موقف رابع له: دخل على أبي جعفر المنصور، العالم الجليل سفيان الثوري وسأله أن يرفع إليه حاجته فأجابه اتق الله فقد ملأت الأرض ظلمًا وجوراً فطأطأ المنصور رأسه ثم أعاد عليه السؤال، فأجابه إنما نزلت هذه المنْزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم فطأطأ المنصور شاكراً ثم كرر السؤال ولكن سفيان تركه وانصرف[٢].

* * *

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٠) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٠).

(٢) الإحياء الجزء الخامس ص١٢٠.

بين حماد بن سلمة
ومحمد بن سليمان

قال ابن سليمان: دخلت على حماد بن سلمة فإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس وفي يديه مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها، فبينما أنا جالس إذ دق الباب.

فقال حماد: يا حبيبة اخرجي فانظري من هذا؟

فقالت: رسول محمد بن سليمان يستأذن؟

فقال حماد: ائذني له، فإذا معه رسالة من الأمير، فإذا فيها بعد أن سلم أما بعد: فصبَّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة، فأتنا نسألك عنها، والسلام.

فقال: يا حبيبة، هلمّ الدواة.

ثم قال لي: اقلب كتابه، واكتب أما بعد.

فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون لأحد، فإن وقعت لك مسألة فأتنا، وسل ما بدا لك، وإن أتيتني فلا تأتيني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا تقيًا والسلام.

فبينما أنا جالس إذ دق الباب.

فقال: يا حبيبة.. اخرجي، فانظري من هذا؟

قال: محمد بن سليمان.

قال: قولي له يدخل وحده، فدخل وجلس بين يديه وبدأ.

فقال: مالي إذا نظرت فيك امتلأت منك رعبًا.

قال حماد: حدثني ثابت البناني قال: سمعت أنسا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ العَالِمَ إذَا أرَادَ بعلمِهِ وجه الله هابه كلُّ شيءٍ، وإذا أراد به أنْ يكنز الكنوزَ هَابَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ**».

فقال: ما تقول - رحمك الله - في رجل له ابنان وهو على أحدهما أرضى فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟

فقال حماد: لا يفعل - رحمك الله - فإني سمعت أنسًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أرادَ اللهُ أنْ يُعَذِّبَ عبْدًا منْ عباده في حياتهِ وفَّقَهُ إلى وَصِيَّةٍ جَائِرَةٍ**» فعرض عليه مالاً، فلم يقبل، وخرج[1].

* * *

(١) الإسلام بين العلماء والحكام ص٩٩.

بين صالح المري والمهدي

بعث المهدي إلىٰ صالح المري، قال صالح فلما دخلت عليه قلت يا أمير المؤمنين احمل لله ما أُكلمك به اليوم فإن أولىٰ الناس بالله أحملهم لغلظة النصيحة فيه وجدير بمن له قرابة برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهديه، وقد ورثك الله من فهم العلم وإنارة الحجة ميراثًا قطع به عذرك، فمهما ادعيت من حجة، أو ركبت من شبهة لم يصح لك فيها برهان من الله، حَلَّ بك من سخط الله بقدر ما تجاهلته من العلم، أو أقدمت عليه من شبهة الباطل واعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالف في أمته، يبتزها أحكامها، ومن كان محمد ﷺ خصمه كان الله خصمه فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حُججًا تضمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة.

واعلم أن أبطأ الصرعىٰ نهضةً صريع الهوىٰ، وأن أثبت الناس قدمًا يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فمثلك لا يكابر بتجديد المعصية ولكن تمثل له الإساءة إحسانًا، ويشهد عليه خونة العلماء وبهذه الحبالة تصيدت الدنيا نظراءك، فأحسن الحمل، فقد أحسنت إليك الأداء.

فبكىٰ المهدي، ثم أمر له بشيء، فلم يقبله.

وحكىٰ بعض الكتاب أنه رأىٰ هذا الكلام مكتوبًا في دواوين المهدي[1].

* * *

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٩٤).

بين الإمام مالك
وجعفر بن سليمان

سعي بالإمام مالك إلىٰ جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس - وهو ابن عم أبي جعفر المنصور - وقالوا له: إنه لا يرىٰ أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر ودعا به، وجرده وضربه بالسياط، ومدت يده حتىٰ انخلعت كتفه، وارتكب منه أمراً عظيماً، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة.

وذكر ابن الجوزي في «شذور العقود» في سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضُرب مالك بن أنس سبعين سوطًا لأجل فتوىٰ لا توافق غرض السلطان[1].

* * *

(١) وفيات الأعيان (٤/ ١٣٧).

بين الفضيل بن عياض والرشيد

قال الفـضيل بن الربيع: كنت بمنزلي ذات يوم وقد خلعت ثيابي وتهيأت للنوم، فإذا بقرع شديد على بابي، فقلت ـ في قلق ـ: من هذا؟

قال الطارق: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعًا أتعثر في خطوي فإذ بالرشيد قائمًا على بابي وفي وجهه تجهم حزين فقلت: يا أمير المؤمنين ل أرسلت إليَّ أتيتك.

فـقـال: ويحك قد حاك في نفسي شيء أطار النوم من أجفاني، وأزع وجداني شيء لا يذهب به إلا عالم تقي من زُهادك، فانظر لي رجلاً أسأله.

ثم يقول ابن الربيع: حتى جئت به إلى الفضيل بن عياض.

فقال الرشيد: امض بنا إليه، فأتيناه، وإذا هو قائم يصلي في غرفته وه يقرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنو وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فقال الرشيد: إن انتفعنا بشيء، فبهذا.

فقرعت الباب.

فقال الفضيل: من هذا؟

قلت: أجب! أمير المؤمنين.

فقال: مالي ولأمير المؤمنين.

فقلت: سبحان الله أما عليك طاعته.

فنَزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي إليه.

فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى غداً.

قال ابن الربيع: فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي.

فقال الرشيد: خذ فيما جئناك له يرحمك الله.

فقال الفضيل بن عياض: وفيما جئت وقد حمّلت نفسك ذنوب الرعية التي سمتها هوانًا، وجميع من معك من بطانتك وولاتك تضاف ذنوبهم إليك يوم الحساب، فبك بغوا، وبك جاروا وهم مع هذا أبغض الناس لك وأسرعهم فراراً منك يوم الحساب حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك سقطًا - جزءاً - من ذنب، ما فعلوه، ولكان أشدهم حبًا لك أشدهم هربًا منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله وحمد بن كعب ورجاء بن حيوة وهم ثلاثة من العلماء الصالحين فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ابنًا، فوقِّر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إن شئت وإني أقول لك: يا هارون، إني أخاف عليك أشد الخوف يومًا تذل فيه الأقدام، فبكى هارون.

قال ابن الربيع: فقلت ارفق بأمير المؤمنين.

فقال: تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا.

ثم قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخَلقْ يو القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه فافعل، وإياك أن تصبح أو تمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أصبَحَ لهُمْ غاشًا لـ يُرِحْ رَائِحَةَ الجنَّة**»(١).

فبكى الرشيد. ثم قال: هل عليك دين؟

فقال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهمَ حُجتي.

قال الرشيد: إنما أعني دين العباد.

فقال: إن ربي لم يأمرني بهذا، وقد قال عز وجل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فقال الرشيد: هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك.

قال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا.

قال ابن الربيع: فخرجنا من عنده.

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ١١٢) (١٤٣) في كتاب الإيمان.

فقال هارون الرشيد: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم[١] .

ويحكى أن الرشيد قال له يومًا : ما أزهدك! فقال الفضيل : أنت أزهد مني ،

قال: وكيف ذلك؟

قال: لأني أزهد في الدنيا ، وأنت تزهد في الآخرة والدنيا فانية والآخرة باقية[٢] .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨) وقال الذهبي حكاية عجيبة والغلابي غير ثقة ا.هـ، قلت ولكن قد تابعه محمد بن سعد الحراني ، فالله أعلم .

(٢) وفيات الأعيان (٤ / ٤٨) .

بين شعيب بن حرب وهارون الرشيد

قال شعيب بن حرب: بينما أنا في طريق مكة، إذ رأيت هارون الرشيد فقلت في نفسي قد وجب عليك الأمر والنهي، فقالت لي: لا تفعل فإن هـ رجل جبار ومتى أمرته ضرب عنقك.

فقلت في نفسي: لابد من ذلك فلما دنا مني صحت: هارون قد آذيت الأ وأتعبت البهائم، فقال: خذوه، ثم أدخلت عليه وهو على كرسي وبيده عمو يلعب به.

فقال: ممن الرجل؟

فقلت: من أفناء الناس.

فقال: ممن ثكلكتك أمك؟!

قلت: من الأبناء.

قال: وما حملك أن تدعوني باسمي؟

فقلت: أنا أدعو الله باسمه فأقول ياالله، يا رحمن، وما ينكر من دعائ باسمك، وقد رأيت الله سمى في كتابه أحب الخلق إليه محمداً وكنى أبغض الخلق إليه أبا لهب.

فقال: أخرجوه[1].

---

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٤٧٠).

بين منذر بن سعيد والخليفة الناصر

لقد أقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله على عمارة الزهراء أيما إقبال وأنفق من أموال الدولة في تشييدها وزخرفتها ما أنفق، وهي في حقيقة حالها مجموعة من القصور الفاخرة وكان يشرف بنفسه على شئون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة وكان منذر بن سعيد يتولى خطبة الجمعة والقضاء ورأى خروجًا من تبعة التقصير فيما أوجبه الله على العلماء، أن يلقي على الخليفة الناصر درسًا بليغًا يحاسبه فيه على إسرافه وإنفاقه في مدينة الزهراء ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس في المسجد الجامع بالزهراء فلما كان يوم الجمعة اعتلى المنبر، والخليفة الناصر حاضر، والمسجد غاص بالمصلين وابتدأ خطبته قرأ قوله تعالى: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

ثم مضى في ذمِّ الإسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وراح يحذِّر وينذر ويحاسب حتى ادكر من حضر من الناس وخشعوا وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب، وقد علم أنه المقصود به فبكى وندم على تفريطه. غير أن الخليفة لم يحتمل صدره لتلك المحاسبة العلنية ولشدة ما سمع.

فقال شـاكيًا لولده الحكم: والله لقد تعمدني بخطبته وما عنىٰ بها غير
فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي . . ثم استشاط غيظًا عليه متذكرًا كلماته وأر
أن يعاقبه لذلك ! !

فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة ، وجعل يلزم صلاتها وراء أحمد
مطرف خطيب جامع قرطبة .

ولكن لما رأىٰ ولده الحكم تعلق والده بالزهراء والصلاة في مسـجـد
العظيم .

قـال له: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة به إذا كرهته ، ولكـ
الناصر زجره .

قـائلاً: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أم لك ـ يعز
لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ .

هذا ما لا يكون وإني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعـ
شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه ولكن أحرجني فأقسمت ولوددت أن أجـ
سبيلاً إلىٰ كفارة يميني بملكي بل يصلي منذر بالناس حياته وحياتنا ـ إن شاء اللـ
ـ فما أظن أنا نعتاض منه أبدًا .

ولما اشتدت الفجوة بين الشيخ منذر بن سعيد والخليفة عبد الرحمن الناصر
نتيجة محاسبة المنذر له في إسرافه علىٰ بناء الزهراء . أراد ولده الحكم أن يزيل
ما بينهما فاعتذر له عند الخليفة .

فقـال: يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح وما أراد إلا خيرًا ، لو رأىٰ ما أنفقت
وحسن تلك البنية لعذرك ، ويريد بالبنية هنا القبة التي بناها الناصر بالزهراء
واتخذ قراميدها من فضة وبعضها مغشىٰ بالذهب وجعل سقفها نوعين صفراء

فاقعة إلىٰ بيضاء ناصعة يستلب الأبصار شعاعها .

فلما قال له ولده ذلك أمر فُفرشت بفرش الديباج وجلس فيها لأهل دولته .

ثم قال لقرابته ووزرائه: أرأيتم أم سمعتم ملكًا كان قبلي صنع مثل ما صنعت؟

فقالوا: لا والله ياأمير المؤمنين وإنك الأوحد في شأنك فبينما هم علىٰ ذلك إذ دخل منذر بن سعيد ناكسًا رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلت دموع المنذر تنحدر علىٰ لحيته لسوء ما رأىٰ .

وقال : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن مع ما آتاك الله تعالىٰ وفضلك به علىٰ المسلمين حتىٰ ينْزلك منازل الكافرين .

فاقشعر الخليفة من قوله ، وقال له .

انظر ما تقول كيف أنزلني الله منازلهم؟ .

فقال: نعم . أليس الله يقول : ﴿ **وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** ﴾ [الزخرف : ٣٣] .

فوجم الخليفة ونكس رأسه مليًا وجعلت دموعه تنحدر علىٰ لحيته ثم أقبل علىٰ المنذر وقال له : جزاك الله خيراً وعن الدين خيراً ، فالذي قلت هو الحق .

ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة ، وأعادها أميره ترابًا علىٰ صفة غيرها[1] .

* * *

(١) مقال بين خليفة وقاض في مجلة الأزهر لشهر رمضان سنة ١٣٧١هـ للأستاذ عبد الحميد العبادي ، وانظر الإسلام بين العلماء والحكام ٩٣ .

بين الكيلاني والمقتفي

وهذا الشيخ عبد القادر الكيلاني - رحمه الله تعالىٰ - يقف علىٰ منبره محاسـ
المقتفي لأمر الله ومنكرًا عليه تولية يحيىٰ بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالـ
القضاء، فقال له مخاطبًا: وليت علىٰ المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غد
عند رب العالمين أرحم الراحمين؟!

فارتعد الخليفة، وعزل المذكور لوقته[١].

بين العز بن عبد السلام ونجم الدين أيوب

كان لمماليك الأتراك نفوذ في الدولة الإسلامية في أواخر حكم العباسيين وامتد نفوذهم حتىٰ أصبحوا أمراء في الدولة أيام حكم نجم الدين أيوب في مصر وكان الشيخ العزُّ قاضيًا للقضاة فيها، وقام - رحمة الله عليه - مصلحًا لأمر القضاء منفذًا بحزم أحكام الشرع لا تأخذه في ذلك لومة لائم، فنظر في حقيقة قضية أولئك الأمراء التي أثارها هو ثم أصدر قضاءه الآتي:

قال السبكي[٢]: ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك وهم جماعة ذكروا أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر والشيخ

(١) قلائد الجواهر ص٨.

(٢) الطبقات، الجزء الخامس ص٨٤.

مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاشتاط غضبًا، واجتمعوا، وأرسلوا إليه.

فقال: نعقد لكم مجلسًا ويُنادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلىٰ السلطان فبعث إليه فلم يرجع فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة، حاصلها الإنكار علىٰ الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه علىٰ حمار، وأركب عائلته علىٰ حمير أخرىٰ، ومشىٰ خلفهم من القاهرة قاصداً الشام فلم يصل إلىٰ نحو نصف بريد حتىٰ لحقه غالب المسلمين لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه له يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم فبلغ السلطان الخبر، وقيل له متىٰ راح ذهب ملكك قبله، فرجع واتفقوا معه علىٰ أن ينادي علىٰ الأمراء فأرسل نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب.

فقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا.

فركب بنفسه في جماعة، وجاء إلىٰ بيت الشيخ، والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأىٰ من نائب السلطنة ما رأىٰ فعاد إلىٰ أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغير.

وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل علىٰ نائب السلطنة فحين وقع بصره علىٰ النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله، فبكىٰ وسأل الشيخ أن يدعو له.

وقال: يا سيدي، خير أي شيء تعمل؟

قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

قال: ففيم تصرِف ثمننا؟

قال: في مصالح المسلمين.

قال: من يقبضه.

قـال: أنا، فتم له ما أراد ونادىٰ علىٰ الأمراء واحداً واحداً وغالىٰ في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير - وهذا لم يسمع قبله لأحد - رحمه الله ورضي عنه [1].

* * *

(١) راجع الإسلام بين العلماء والحكام ١٩٧ .

بين العز بن عبد السلام ونجم الدين أيوب

إن خلافًا نشأ واشتد، وخصامًا طفق منذرًا بالكيد والحرب بين الأخوين، سلطان الشام الملك الصالح إسماعيل، وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب، وقد أوجس إسماعيل خيفة من نجم الدين أيوب، فاستعان بالصليبيين أعداء الإسلام، وتحالف معهم على قتال أخيه، وأعطاهم مقابل ذلك مدينة صيدا - على رواية السبكي - وكذلك قلعة صفد وغيرها - على رواية المقريزي وغيره - وأمعن إسماعيل في هذه الخيانة فسمح للصليبيين أن يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح وآلات الحرب وما يريدون، وأثار هذا الصنيع المنكر استياء المسلمين وعلمائهم، فهبَّ الشيخ العز واقفًا في وجه الخيانة والخائنين، وأفتى بتحريم بيع السلاح لهم، وصعد على منبر جامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة، حيث كان خطيبه الرسمي، وأعلن الفتوى، وشدَّد في الإنكار على السلطان وفعلته المنكرة وخيانته الفظيعة للأمة الإسلامية، وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل وهو بمثابة الإعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ وصار يدعو بدعاء منه: اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ويذل فيه أعداؤك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك - والمصلون يضجون بالتأمين على دعائه - ولم يكن السلطان حاضرًا تلك الخطبة إذ كان خارج دمشق ولما أعلمه رجاله بذلك أمر بعزل الشيخ عن خطبة الجمعة واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار.

وكان أنصار الشيخ قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد

السلطان وأعدوا لـه وسائل الهرب، ولكنه ـ رحـمه الله تعـالىٰ ـ أبىٰ ذلك وأل
عليه، فأصر علىٰ الإباء فعرضوا عليه بأن يختبيء في مكان أمين لا يهتدي إ
السلطان ورجاله، فرفض هذا العرض أيضًا وقال: والله لا أهرب ولا أختبي
وإنما نحن في بداية الجهاد ولم نعمل شيئًا بعد وقد وطنت نفسي علىٰ احتمال
ألقىٰ في هذا السبيل والله لا يضيع عمل الصابرين.

ثم لما قدم إسماعيل إلىٰ دمشق أفرج عنهما بعد الاعتقال ولكن العز بن ع
السلام أمر بملازمة داره وأن لا يفتي ولا يجتمع بأحد البتة فاستأذنه في صل
الجمعة مؤتمًا بإماها وأن يعيد إليه طبيب أو مزين (حلاق) إذا احتاج إليهما و
يدخل الحمام فأذن له في ذلك ومرت الأيام والشيخ في إقامته الجبرية، وق
منع من الإفتاء والاتصال بأحد من إخوانه أو طلابه وتعطلت هوايته المفض
وواجبه المقدس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فطلب الهجرة من دمش
قاصداً مصر، وأفرج عنه بعد محاورات ومراجعات فأقام بدمشق ثم انتزع من
إلىٰ بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق وأخ
وأقام بنابلس مدة وجدت له معه خطوب ثم انتقل إلىٰ بيت المقدس حيث أق
مدة ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفر
بعساكرهم وجيوشهم إلىٰ بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسير الصال
إسماعيل بعض خواصه إلىٰ الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلىٰ الشي
وتتلطف له غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعودة إلىٰ مناصبه علىٰ أحسن حا
فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلىٰ جانب خيمتي
فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته.

ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلىٰ مناصبك وما كنت عليه زيادة أن تنكس
للسلطان وتقبل يده لا غير.

فقال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل

يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، الحمد الله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فقال الرسول: يا شيخ قد رسم لي أن توافق على ما يطلب وإلاّ اعتقلتك!

فقال الشيخ: افعلوا ما بدا لكم فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان وكان الشيخ يقرأ القرآن في معقتله والسلطان يسمعه.

فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟

فقالوا: نعم.

قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، قد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم!!

فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها[1].

* * *

بين النووي والظاهر بيبرس

لما خرج الظاهر بيبرس إلىٰ قتال التتار بالشام أخذ فتاوىٰ العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به علىٰ قتالهم، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه.

فقال: هل بقي من أحد؟.

فقيل له: نعم بقي الشيخ محي الدين النووي.

فطلبه فحضر.

فقال له: اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع.

فقال: ما سبب امتناعك؟

فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مال، ثم مَنَّ الله عليك وجعلك ملكًا وسمعت عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي فإذا انفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلا من الحوائص وبقيت الجواري بثيابهن دون الحُلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر من كلامه، وقال: اخرج من بلدي - يعني دمشق.

فقال: السمع والطاعة وخرج إلىٰ نوىٰ.

فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدىٰ به فأعده إلىٰ دمشق.

فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ.

وقال: لا أدخلها والظاهر فيها، فمات بعد شهر[1].

---

(١) من أخلاق العلماء الجزء التاسع.

بين ابن تيمية وغازان

وردت الأنباء في أواخر سنة ٦٩٨هـ بزحف غازان التتري وجيشه من إيران نحو حلب وفي وادي سليمة يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ التقىٰ جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون وبعد معركة حامية الوطيس هزم جمع الناصر وولىٰ الجند وأمراؤهم الأدبار ونزح أعيان دمشق إلىٰ مصر يتبعون سير الناصر، حتىٰ خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيان البلاد، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية بقي صامداً مع عامة الناس فاجتمع شيخ الإسلام مع من بقي من أعيان البلاد، واتفق معهم علىٰ تولي الأمور وأن يذهب هو علىٰ رأس وفد من الشام لمقابلة غازان فقابله في بلدة النبك وقد دارت بينهما مناقشة عنيفة قال البالسي: قال الشيخ ابن تيمية لغازان وترجمانه يترجم كلام الشيخ: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضي وإمام وشيخ ومؤذنون علىٰ ما بلغنا، فغزوتنا، وبلغت بلادنا علىٰ ماذا؟، وأبوك وجدك كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت مع ابن تيمية وغازان أمور قام بها ابن تيمية كلها لله ثم قرب غازان إلىٰ الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية فقيل له: ألا تأكل.

فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟

وغازان مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن غازان من شدة ما أوقع في قلبه من الهيبة والمحبة سأل مَنْ هذا الشيخ؟.

إني لم أر مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني

أعظم انقياداً لأحد منه .

فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ثم طلب منه غازان الدعاء .

فقال الشيخ يدعو فقال: اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد وإن كان قد قام رياء وسمعة وطلبًا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره ، وغازان يؤمن علىٰ دعائه ويرفع يديه .

قال البالسي: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن نتلوث بدم ابن تيمية إذا أمر بقتله ، فلما خرجنا من عنده قال قاضي القضاة نجم الدين وغيره : كدت تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك من هنا ، فقال : وإني والله لا أصحبكم .

قال البالسي: فانطلقوا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه فتسامعت به الخواتين والأمراء وأصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر إلىٰ دمشق ، ووالله ما وصل إلىٰ دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه .

وكنت أنا في جملة من كان معه وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم - أي سلبوهم - ثيابهم وما معهم[١] .

* * *

(١) مختصر منهاج السنة للذهبي ص٣٣٢ .

الختـام

وبعد فهذا آخر ما تم جمعه واختياره من المواقف التاريخية وأسأل الله تعالى أن ينفع إخواني المسلمين وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وكتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

عفا الله عنه وعن جميع إخوانه المسلمين آمين